

# في الرابعة صباحاً ..

## قصّة بطلّم تزار سليم

— الا تعرف ان الشرب انتحار بطيء!  
— ومن قال لك اني على عجلة منه ؟

كان جالساً وحده في المقهى .  
وحده ، والكلم يضحك ويتحدث ويثرثر  
ويهمس مناهج عن عيد الميلاد . وقناني البيرة ،  
والكباب المسكين كان هاجماً على الارض فرغمته  
المعجوز الى حضنها بعد ان فرشت قطعة من  
القماش على فخذها . كانت وحيدة . وحيدة مثله .  
وكانت تطعمه السكر وتمسد شعره وهي تنظر  
بعيداً ، لعلها قد فقدت كل شيء فلم يبق سوى  
ذاك الكباب تطعمه السكر وتمسد شعره  
وتنتظر ..

وفي الساعة السابعة اطفئت الشموع واشعلت  
الانوار الكهربائية . ماذا في الساعة السابعة !  
عله طقس من الطقوس . انه لا يفهم هؤلاء  
الناس . انه لا يفهم . انه يرى الوجوه وقد  
برزت معالمها بوضوح . والفتيات يطفحن بالصحة  
والحيوية .

— واحد بيرة رجاء .  
— واحد بيرة .  
— واحد .

وتروح قناني البيرة وتأتي ، وتبرق الانداح  
امام عينيه .

— واحد بيرة .

ويبرق القدرح . ويشرب ..  
الكل يتنهد للكرسس ، والشموع مطفأة على  
المناضد . والستائر مسدلة على النوافذ . لا  
اضواء ولا انوار سوى اضواء مقهى آ كتر .  
وكان هناك من يلعب القمار ايضاً . هناك من لا  
يأبه بالكرسس . واحد . اثنين . ثلاثة .  
خمسة ( بحماس ) ستة . اثنين وثلاثين .

ويخمر . ويربح غيره . هذه هي الحياة .

وما دخل الحياة في هذا ؟

انها لعبة ، تاكل هي الحياة .

ويبرق قدرح البيرة ، ويشرب .

— واحد بيرة رجاء .

ويبرق آخر . ها هي الحياة .

واصوات اللاعبين تقوى وتستخدم وهم يرمون  
الورق على المنضدة بقوة ، الواحد بعد الآخر .  
وكانت الستائر مسدلة بمخول تغلف تلك الزحمة  
عندما اقبل صاحبه . اقبل كقشة طافية في تلك  
الزحمة والضوضاء قتشبت به صائحاً بفرح وقد  
احس الخلاص :

— يا هلا بالفتى المعجوز .

ولكن ماذا حدث بعد ذلك ! واجهد نفسه  
ليتكلم . واجس بحاجة ملحة الى سيجارة . اين  
سجائري . وراح يبحث عبثاً في جيوبه وعلى

انه لا يذكر شيئاً البتة ولكنه يذكر شيئاً  
واحداً . اجل ! عندما ذهب الى المراض حطم  
المرآة التي امامه واخذ يضحك . تجمع الناس  
حواله وقالوا انه سكران . فاستطرد في ضحكته  
ولم يدفع اكثر من قيمة المرآة . ولكن الناس  
لم يفهموا . لم تكن المرآة ما حطم .. كان  
يريد ان يحطم شيئاً يترامى في المرآة . ولكن  
القطع التي على الارض كانت تضاعف المرثيات  
امامه . فضحك ساخراً من نفسه ، ومن  
كل شيء .

— آه . رشقة من الجن .

كل يوم . كل يوم في الساعة الرابعة .  
ونظر بحقد الى ساعة الحائط ، وانخرط نظرتة  
من عقاربها السوداء الى الرقاص المتأرجح يروح  
ويأتي كسكين عمياء تعمل في ذهنه المتبلد .

في الساعة الرابعة من كل يوم .

عندما ذهب الى المراض حطم المرآة التي  
امامه .

ولكن ماذا حدث البارحة . ماذا !

كانت هناك شموع على المناضد . كانت هناك  
شموع . شموع في مقهى آ كتر .

اجل انه يذكر . واخذ يفرك جيبته المنداة  
بالعرق البارد .

الشموع على المناضد تضيء الوجوه راسمة  
ظلالاً باهتة على الجدران . انه الكرسس وعلى  
الكراسي والمناضد لغائف الهدايا وبابا نويل  
يلوح في كل مكان في واجهات الدكاكين المقابلة  
وفي الجوارض على مدى الشارع كأنها النجوم  
والكل تأبط شيئاً بحماس وغبطة . وهنا في كل  
مقهى كانت الشموع تشتعل فوق المناضد راسمة  
ظلالاً باهتة لا حدود لها ، مضئمة الوجوه .

والموسيقى . واغاني الكرسس ، اطفال  
صغار يغنون في المذياع وصوت الارغن وهناك  
اجراس من بعيد كانت تدق ، وثمة الهالالوليا .  
شمور بالسلام والطمانينة لفترة وجيزة .

كان يغور ، يغور في اعماق سحيقمة مظلمة .  
وتلاحقت انفاسه . انه يحتنق ... خنقته الظلمة  
والغور البعيد . ظلمة اطبقت عليه كالاطبوط  
وراحت تستنزف انفاسه المبهورة ، وكالفريسة  
المقنوصة فتح عينيه المرعوبتين في ظلام الغرفة  
بينما تفصدت جبهته بالعرق البارد .  
وكانت الساعة تدق الرابعة .

وبأنامل مرتمدة تلمس زر الضوء وانثني  
واقفاً يحيل عينيه .

انه ما زال ، ما زال يحتنق بتلك الظلمة .  
فاندفع الى ازرار الضوء يديرها جميعاً وهو  
يتخبط ، وفي وسط الغرفة وقف حائراً لا يعرف  
ما يعمل وتراعت له الغرفة مسرحاً واسماً ، واسماً  
جداً وهو الممثل الوحيد الذي لا دور له فيه ،  
او انه قد نسي الدور الذي أسند اليه .

— آه رشقة واحدة من الجن !

وادار لسانه اليابس في حلقومه الملتهب .

انه يبيع كل شيء ، كل شيء حتى الساعة التي  
في ممصمه .

ولكن لماذا ! لماذا لم يذهب الى البوكا ؟

— يا لقبائي وضعفي .

البوكا !!

وجالجت في الغرفة ضحكته القاسية .

— هيا . هيا الى البوكا ايها الجبان ، ولكنك  
اضمت الفرصة . وها انت ذا في منتصف المسرح  
كالممثل الاخرق لا يتفوه بشيء . ما اصلحك  
حصاناً في سيرك ، او ذلك البلياتشو ، هذا هو  
انت .

ونظر الى المرآة عاكفاً حاجبيه كالبلياتشو ،  
زماً شفتيه ، وذاك الانف الاحمر . انه ليس  
بحاجة الى حمرة اخرى يضيفها عليه لينجز  
مكياج البلياتشو .

ومن الاغوار البعيدة في اعماق نفسه كانت  
هناك مرآة تتصلم .

ماذا حدث البارحة ؟

المنضدة وفي كل مكان وهو يتخطى .

وعاط قطار من بعيد فتشجت يدها على المنضدة التي اتكأ عليها . القطار يهدر ثم يبتعد وصوت عجلاته تصرف في الظلمة على الحطابن الطويلين كحيوان هائج يعض قيديه ويميط . انه يذكره بالسفر ، بالرحيل ، بالدواع واللقاء ، بالحزن والفرح . بصير العالم .

ولكن ماذا حدث البارحة ؟ هناك شيء فاجع قد حدث ، ما هو ؟

عندما ذهب الى المرحاض حطم المرآة التي امامه وراح يضحك . لماذا حطم المرآة !! لماذا ! - ربا . سيجارة واحدة .

واخذ يعض شفته اليابسة بنقمة ، لم يشتر سجاير البارحة؟ وها هي الكداس علب الكبريت امامه تسخر منه ، علب الكبريت التي اشتراها قبل يومين او ثلاثة كي لا ير بمثل هذه التجربة مرة اخرى عندما يستيقظ في الساعة الرابعة . كان يدخن وكثيراً ما كان لا يجد الكبريت فيهمش السجارة بين اصابعه ، اياكها ! فصمم على ان يشترى علبة كاملة من الكبريت ليتخلص من هذه الفجبة وها هي العلب امامه اكداس ساخرة .

والبارحة ، انه يذكر جيداً بأنه قد اشترى علبة كاملة قبل ان يخرج من القهى ، ولكن كيف خرج من القهى كيف !

واجهه نفسه ليتذكر . كان صاحبه قد اقبل . اقبل كفتة طافية في تلك الزحمة فصاح : - يا هلا بالفتى العجوز .

وكانت الشموع مطفأة في القهى والامان يغنون بصوت عال :

- اني اكره هذا .  
- هذه طريقتم . انهم لا يحسون السعادة والطمأنينة الا عندما يكونون جماعة .

- يا هلا بالفتى العجوز يا هلا . انت فتى طيب . اتدري ذلك؟ لا ، انت لا تدري .

- بلي واعرف انك فتى طيب ايضاً .

- انا؟ لا .. انا شيخ عجوز . انا فيل ميت . ولكن هذا لا يهم . المهم ان نشرب اتشرب ايها الفتى العجوز ؟

- قدح من البيرة .  
- بارك الله فيك !!

وأعقب ذلك اقتداح ، وهو يتحدث ويضحك ثم يمسح دون سبب .

- اجل ايها الفتى العجوز . انا فيل ميت ، اتدري ماذا تعمل الفيلة عندما تموت ؟

- اينما كانت فهي تذهب الى واد معين لتموت هناك .

- لتموت هناك . وكنت في طريقي الى هناك . - اين .

- البوكا !  
ونظر بقسوة جامدة الى محدثه واستطرد :

- البوكا .. كنت ذاهباً الى هناك . وسأفعل ذلك يوماً ما ، سأفعل ذلك .

وهز رأسه مؤكداً :  
- اجل سأفعل ذلك .

وارتمت على عينيهِ الواسعتين علام حليم بينا قال له صديقه :

- ولكن لماذا ؟  
- لماذا !

ونظر اليه قليلاً وهو يفكر ثم سخر قائلاً :  
- لأنني فيل ميت . وقد اتعبتني هذه السنون .

كل يوم كل يوم ... اوه .  
- ماذا ؟

- ايها الفتى العجوز : انت فتى طيب .  
ووضع يده على منكب صديقه :

- ولسوف اذكرك هناك . ها ايها الفتى العجوز !! وسأرسل لك بطاقة من البوكا .. تصور !!

- لن ادعك تذهب .  
- انت !! لقد منعتني غيرك من قبل . قالوا

انها نصيحة يسدونها لي . وانا ! انا الجبان الضعيف انصمت لتلك النصيحة وإلا فقد كنت هناك قبل ان اراك . ستأتي معي . أليس كذلك ايها الفتى العجوز ؟

- اجل .  
- اوه .. لا فأنت امامك الحياة وخير لك ان تبعد عني ولا تأخذ بقولي .

وباصرار مؤلم قال :  
- لا تأخذ بقولي . انها نصيحة اسديها لك

ولسوف تذكرها يوماً ما . كل من عرفني ، وانهم لقله ، عافوني بعيداً ... انا اشبه ما اكون بالكلب الاجرب تنفر منه بقية الكلاب

وتعوى عليه من بعيد . انا كلب اجرب وستعرفني آجلاً ام عاجلاً . ولا اريد لك ان تمر بمثل هذا الدور . انت امامك الحياة . اما

انا ... انا فيل ميت . وفي الساعة الرابعة من كل صباح استيقظ كما لو كانت هناك قوة خفية

توقظني فافكر بحياتي ... انك لم تجرب هذا ! في الساعة الرابعة وكان هناك موعداً مع شيء ، مع نفسي ! وكشريط سريع تمر حياتي في الظلمة

اينما كنت . في الساعة الرابعة تمذبني نفسي . ماذا ! ماذا .. ككابوس مرعب ارى حياتي بعمق .

كالو كنت انظر في قرارة بئر عميقة . والبارحة عدت الى نفسي ، لم يكن فيها اي شيء غير الهراء .. انت تفهم ذلك .

وهز صديقه رأسه .  
- انت تفهم .

وهز صديقه رأسه ثانية .  
- عدت البارحة الى غرفتي . وفي الساعة

الرابعة استيقظت . وارتدت ان احديثك فلم اتمكن .  
- لماذا .

- لم تكن معي . ولكنني كتبت ما اردت ان احديثك به . ها هو .

واخرج من جيبه ورقة مهلهلة :  
« عدت اليوم الى غرفتي المطلة على الراين ،

وهذا امر غير مهم ، ان تطل غرفتك على الراين او على اي شيء آخر كمقبرة المساكين

مثلاً . ولكنني اردت ان اكتب لك بالذات رغم اني احجمت فلست اريد ان اعكروحوك

النقية بأحاساساتي وآلامي التي تنبعث من نفسي في كل مكان اكون فيه كرائحة قدم .

غريب ! اني احطم سمادتي بيدي دائماً دائماً واسعد لحظة عندي عندما لا اكون سعيداً .

لمن ابث شكاتي ؟ لك ! لا . انت اجمل من ان ابث شكاتي له ، فأنت شاب لا يعرف ما الحياة

ولا اريدك أن تعرفها مني .  
انا سجين نفسي . اينما كنت عذبتني تلك

القيود . قيود نفسي التي خلقتها بيدي .  
انا تميس الآن في عالم معقد يعرف ما الحياة .

اكتب لك هذا ، وهناك ذبابة حبيسة في غرفتي تحاول الفرار وقد أضنتها المحاولة فهي

تجهد في تعرف الطريق الى الخلاص فأسمع جناحها يضربان الحائط بصوت مزعج مؤلم وقد ارتكنت الآن الى زاوية من الغرفة لتستريح

وها هي تحاول مرة اخرى فيطن جناحها في اذني .  
اتراها نفسي ؟

لا انها ذبابة ما زالت تحاول .  
اود ان اقتلها . ولكنني اضعف من ان

احاول ذلك . انا اضعف من ان اقتل ذبابة .  
وبعد هذا تود ان تعرف ما بنفسني !

انها تحاول مرة اخرى في الخلاص وثمة تحجم .  
لقد اضنتها المحاولة .

وها هي نفسي تقتلها اليدان الخاملتان !  
وها هي نفسي تقتلها اليدان الخاملتان !  
وها هي نفسي تقتلها اليدان الخاملتان !  
والذباية تحاول الخلاص من غرفتي .  
سجنها المحكم .

للوصول الى العالم المتناهي .

الى الوجود .

الى الكل .

الى العدم .

انها ما زالت تحاول الخلاص .

انها ما زالت ! وجناحها يضربان الحائط  
والطينين المؤلم يصك اذني .

هناك ! في الخارج عالم آخر .

هناك

وتضرب الذباية جناحها للوصول .

وتطير في فضاء العرفة تضرب الحيطان الاربعة

بطنين مزعج .

ليس من خلاص .

ما آلم هذا .

ويظل الطنين يضرب في اذني التعميس التعميس

من عاش داخل نفسه .

انطلق ايتها الذباية . اود ان اقتلها ولكني

لا استطيع .

لا .

ويظل الطنين .

طنين الذباب .

حولي !

- اجل ليس من خلاص ايها الفتى العجوز .

واعقب ذلك صمت مؤلم . وبعد قليل قال له

صديقه :

- لماذا لا تترك الشرب . انه ..

فقاطمه مقهقها حتى دمت عيناه :

- اناك تذكرني بناذرة لطيفة .

واستمر يضحك .

- ما هي .

- قال الطبيب لاحدم : الا تعرف ان

الشرب انتحار بطيء ! فأجابه : ومن قال لك

اني على عجلة منه ؟

فلم يدر صديقه ما يفعل ، اضحك معه ام

يخزن .

- اجل ايها الفتى العجوز انا لست في عجلة .

ورغم هذا فانتني ذاهب الى هناك عما قريب . انا

في طريقي كذاك الفيل الميت .

ونظر الى صاحبه بقنوط :

- اتدري ! هذا سر اكاشفك به . لقد

ادخلوني المستشفى من اجل ذلك . تصورني في

المستشفى . لا . لا . انه ليس السجن ، انه

شيء آخر . لم اجرب السجن في حياتي ، ولكن

في المستشفى عرفت انه من السهل جداً ان

تكون فقيراً هندیاً . ينام على المسامير وان تجلس

في الثلج كاللاما ، انه عذاب جسماني سرعان ما

تألفه اذ تحس بعد ذلك وكأنتك لست ذاك

الانسان الذي يجلس على المسامير او ينام على

الثلج . انك انسان آخر ينظر الى كل ذلك

وكأنتك لست ذاك الانسان . اما المستشفى !!!

فهو اكثر من ذلك .

- واخيراً .

- واخيراً ، ها انت تراني . في المستشفى

تعرفت على شخص غريب . كان هذا زبوناً

منتظماً للمستشفى ففي كل سنة كان يزوره لفترة

معينة يخرج بعدها ليعود في السنة الاخرى .

عشرة ايام ايها الفتى العجوز . عشرة ايام قضيتها

هناك كادت روحي ان تهرق . ليس هناك اكل

فكنا ننتظر اللحظة التي تقلبها المعرصة لتضرب

الابرة كما لو كنا ننتظر وجبة الطعام . لن

انسى هذا العذاب ولن انسى من كان سبباً

في ذلك .

- من .

- اخي . ولكني احبه .

- انت لا تجبه ، ولكنك تخافه .

## صدر حديثاً

# الاتحاد السوفياتي

## للاستاذ عبد السلام الادهمي

وهو الجزء الثالث من سلسلة

في ظل الاشتراكية ، التي تحدث

المؤلف في الجزء الاول منها عن

رومانيا ، وفي الجزء الثاني عن

الصين الجديدة .

دار العلم للملايين

- انا !

- اجل فلطالما فكرت في السر وارادت ان

احل ما في نفسك .

- ايه ايها الفتى العجوز . ليس بإمكانك ان

تعرف ما اعقد الانسان . لقد حاولت مراراً

ان ادرس التحليل النفسي . واكثر من هذا

فكيف اكرهه او اخشاه او اتأثر به وانا لم

اره الا اماماً ولفترات متباعدة . فانت تدري

بانه لم يعيش في بغداد الا لفترة الدراسة .

- وهذا هو السر . فلا شك ان اهلك

كانوا يحدثونك عنه ولا ينفكون يذكرونه . ولقد

حاولت انت كثيراً ان تتخلص من تأثيره ومن

شخصيته التي فرضها خيالك عليك وانت صغير .

انت اصغر منه بكثير كما اعرف وقد كان

مثالاً فرضه خيالك .

- اسمع ايها الفتى العجوز . فقد قلت لك

بانك لن تستطيع ان تعرف ما اعقد الانسان .

وانك لتظهر امامي الآن كنتك الطيبة التي

خلعت عني ملابسني . انها ليست الملابس فقد

كنت اكذب طوال الوقت . كان اثنان هناك

عندما كنت اجيب على اسئلتها : الرجل الحقيقي

والممثل . ليس بإمكانك ان تفهم .

- ولكن .

- قلت لك اسكت ولا تتكلم بما لا تعرف .

ولكن ماذا حدث بعد ذلك !! لماذا صرخ

بصديقه مثل هذه الصرخة . ولماذا حطم تلك

المرآة ! وكيف جاء الى غرفته هذه . ونظر

فما حوله بقنوط .

- لماذا انا هنا !!

في الساعة الرابعة من كل يوم تعذبه نفسه ،

ليس من خلاص . ونظر الى المرآة التي امامه :

ليس من خلاص .

ورأى في المرآة من يقول له :

- ليس من خلاص .

ومن الاغوار البعيدة في اعماق نفسه كانت

هناك مرآة تتحطم . وبكل ما فيه من قوة اهوى

على المرآة بقبضته فتناثرت قطعاً مدممة بينا

جلجلت في الغرفة ضحكته القاسية . وفي كل

قطعة وفي كل شظية كان هناك من يقول :

- ليس من خلاص .

فجلجلت ضحكته القاسية وهو يدوس بقدميه

العاريين قطع المرآة ويرفسها .

بون

نزار سليم